اسحق

(1970) م

فـي داخـل داره الريفيـة ... التـي تسـتند علـى كثيـب مـن الرمـل المتماسك، الذي يميل لونـه للاصفرار الذهبي... ساعات الشروق وعند الأصائل... أيام خريف وافر العطاء... لا زالت بعض من قطراتـه تتهافت تحتضن الأرض... تنبئ بزوال مرتقب.

كـان يجلـس فـي خلوتـة المقصـودة، بهـدوء تام...تـدافعت مـن خلالـه همسـات حبيبـات الـرزاز المثقلـة بالمـاء...نحو مسـمعيه، وهـي تطـرق بمطرقتها الخفيفة اللطيفة... على سقف تلك الدار المغطى بألواح من الزنك المقوى...تلك التي تهدي للأسماع رنيناً خافتاً، يتواءم ويندرج مع ما كان يدور بنفسه... من تداعيات الذاكرة، التي ظلت تتقافز ما بين ماضيها القلق، وحالها الآني القاتم (المرتبك)، ومستقبلها الذي تتفاوت إشراقاته... ما بين العتمة العالقة وانسكاب ضياء الصبح الوافر... المتشتت بدواخله، ذاكرة لم تكد تخلد لقرار... إلاّ وتواثبت تتوق إلى الخروج.

أصاب ذلك الشتات المحير... نواحي ذلك (السرحان) المقلق... الذي كان يتأرجح ما بين الدعوة إلى الابتسامة أو إلى (صرة الوش)... فكان

الأمر المخيم عليه لذيذاً ومستطاباً... ينساب أمامه متأرجحاً، يتماوج مثلما الأفعى الوديعة الملساء، في ما بين انثناءة وانطلاقً... أو بمثل فريعات نبت هين رقيقة، تتفاوت في توزيع اخضرارها الآسر، ما بين الداكن، والخفيف الشفيف، وهي تتمايس، بحسب ما تمليه عليها نسمات الهواء الباردة... التي سادت تلك الكثبان الرملية المتداخلة... عبر انطوائها السلس، الذي يتماثل كثيراً وسقوف البيوت التي تتخذ من الزنك ستاراً لها وكساءً...

كان الصمت سيد الموقف... يتخلله خيال، تترادف فيه المعاني... وتختلط في أنحائه الإرادات والتوقعات... محشو بالآمال والطموحات... وتحاصره القناعات بالواقع، الذي يرمي به بعيداً، عن الإيجابيات المستحسنة... يتصارع مع نفسه، ما بين شد وجزر... ويظل يجوس في مناحي دواخله جيئة وذهابا... يخط بعضاً من المواقف وكأنها على الرمل رسمت... تزول وتنمحي عندما تغازلها الرياح... وينشئ حصوناً متعالية، سرعان ما تتناثر مكوناتها وتتلاشى فتصبح هباء...

كان للعوز مرقداً عنده...لكنه كان قوياً، ولضيق ذات اليد ملاذاً آمناً لديه...فصبره فاق الحد، كما ظل الشح يرمي به في متاهات مجهولة...لكنه كان الأغنى، وبات شظف العيش رفيقاً ملازماً له...فلم يجزع أو يتضجر،...

www.omerelammas.com

تجـده يحسـب.. ويحسـب فـي تواصـل، باهتمـام بـالغ... ويعـد ويحصي... ثم يرجع ليجد الحاصل صفراً... يسائل نفسه ويقول:

كيف تدخر النقود؟

أو كما قيل:

وأنت تأكل إذ تجوع؟

وأت تنفق ما يجود به الكرام على الطعام؟

طـال صـمته... وتشـابكت حسـاباته، وكانـت كـل إجاباتـه خاطئـة... فيعيـدها مـرة ومـرات... و (يسـرح) بعيـداً متجـاوزاً كـل المتاهـات، والوهـاد والمرتفعات، والسهول... ويعود كمن لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى...

(دق دق دق) ....ثم (دق دق دق)... وثالثـة (دق دق دق)... وكانـت هي الأقوى، انقطع سيل أفكاره، ووحي خيالـه، علـى أثر فعل طـارق علـى باب داره... الذي ينأى بعيداً عن تلك الغرفـة، أو مستوع أحلامـه... تلـك التي كا يقبع فيها...

انسـل الرجـل مسـرعاً إلـى خـارج الغرفـة... ترشـقه بعـض مـن قطـرات الرزاز، التي تخلفت كثيراً عن ركب الرشـة، تلـك التـي تسـاقطت علـى داره فـي وقـت قصـير مضـى... أدار مـزلاج البـاب فـإذا هـو وجهـاً لوجـه مـع إسحاق الذي يفصل بين داريهما بيت واحد...

www.omerelammas.com

لم يكم من الطبيعي حضور إسحاق لزيارته... إذ أنّ ذلك لم يحدث أبداً منذ أن تجاورا قبل سنة بالتقريب... الأمر كان محيرا! فإسحاق رجل يكبره، على الأقل، بعشر سنوات أو أزيد... وما يعرفه عنه إنه شخص انطوائي... للحد الذي يمكن أن يلحظه الجيران... فهو لا يميل إلى التجمعات، بل يحب الانفراد بنفسه... أو على الأكثر شخص أو شخصين آخرين، يستطيب مجالستهما... كان اسحق رجلاً نحيلاً، متوسط الطول، تزينه شلوخ (سلم) على كلا الخدين... يتميز صوته بالقوة غير المنفرة، كان رجلاً (دغري)... كلمتة واحدة لا يجامل، له رأي يعتز به ويؤمن به فيما يخص الجميع... وخاصة من الناحية السلوكية، كان ليناً هيناً وقاسياً في ذات الوقت... مما يجعل مجالسيه يخشون الوقوع في خطأ لفظي أمامه...

كان اسحق حين زار جاره، يرتدي جلابية من ذلك النوع المستخدم للنوم... (زرارتها) العليا ما (مزررة) أو مقطوعة، الله أعلم، وكان ينتعل (سفنجة)... الرأس منه أصلع، لم يسمح إلاّ لبضعة شعيرات أو (سبيبات) واهنة، تنحدر من الجانبين إلى أسفل...

دعاه لدخول الدار فلم يستجب، وفضل الجلوس بكل الأريحية على كثيب من الرمل... تعلقت بعض أجزائه بحائط الدار... وكان الكثيب مبللاً رطباً، يدعو الفرد... وبكل الترحاب، أن يجلس أو يتكئ فوقه... لاسيما والرزاز الخفيف لا يزال يتساقط في رفق ملحوظ.

www.omerelammas.com

لا شيء يقلق أو يثير التوجس في تلك الجلسة... إلاّ توارد الأفكار و (لخبطة) التوقعات، والتمسك بالانضباط التام لأي فعل أو لفظ يبدر منه، أمام هذا الرجل الذي داهم داره... وقطع علية سريان خططه المستقبلية والآنية... وأخرجه في يوم ماطر من قعر داره...

كان الحذر سيد الموقف... والتوقعات السالبة كانت تجوس في المكان... والتساؤلات المتشابكة والمتكررة تتدافع تترى في دواخله، زي:

(الزول دا الجابو لي شنو يا ربي؟)

و

(الوكت ذاتو ما وكت زيارة)

و

(ربنا يجيب العواقب سليمة)

ويقول لنفسه:

يا الله شد حيلك يا زول...

(الصقر كان وقع كترة البتابت عيب).

www.omerelammas.com

هيأ اسحق نفسه واعتدل في جلسته... كمقدمة للحديث عند عامة أهلنا في السودان، عندما يكون الحديث متعلقاً بأمر هام أو أمر جلل... كما تحفز صاحب الدار لتلقي الخبر قال اسحق:

أنا يا (فلان...)... جيتك في طلب، أرجوك ما تردو... أنا دايرك تعتبرني زي أخوك الكبير... وكمان نحنا جيران، والرسول أوصى بالجار... أنا عندي قروش قاعدة في البيت ساكت، و أسي بتسمع في كلامي دا معاك، وأنا والله أصلو ما محتاج ليها... وانت ماشة عليك ولادة في البلد... أنا دايرك تلبي لي طلبي وتكرمني، وتشيل مني المبلغ البكفيك... فمصاريف الولادة كتيرة، وأنا مجربها قبلك... أها قول لي داير كم؟

الفار لعب بى عب الزول..والخبر كان مفاجئ ليهو...فشكر اسحق على شعوره الطيب، وأردف قائلا:

(أنا والله مما حملت المرة دي بديت اخت وراي شوية شويه... والحمد لله أنا أسع جاهز... ربنا يكرمك ويزيدك... ودا معروف ما ممكن أنساه ليك أبداً)...

قام اسحق قال ليه:

www.omerelamin.com

(أنا دايرك تلبي لي طلبي زي ما قلت ليك، وتاخد قروشي دي وتسافر بيها... لو ما احتجت ليها جيبها لي راجعة... بس انت لازم تجبر بى خاطري)...

الزول بعد دا ما لقى حيلة أبداً... فاستجاب للطلب وقال ليهو:

(خلاص جيب لي خمسة وستين جنيه)...

تقبل اسحق الاستجابة بارتياح تام وقال ليهو:

ما تتحرك من محلك دا... وما تدخل جوة أرجاني قبلك...أن ماشي أجيها ليك.

ما هي إلاّ دقائق معدودة ويرجع اسحق متهللاً (غامت) الجنيهات في إيدو أداها ليهو وقال ليهو:

(القروش دي ما يعلم سرها إلاّ أنا وإت والله... حتى مرتي والله في البيت ما عارفا عنها حاجة... واسمع كلامي دا:

(بعد ما ترجع بالسلامة... انت على كيفك، داير تردها لي كلها في وكت واحد ما عندي مانع... داير تردها جنيه جنيه على كيفك، بس شوف راحتك وين)...

ذهب إسحاق إلى داره طيب الخاطر... ودخل رب الدار إلى داره طيب الخاطر... غير أنّ تأنيب الضمير انتابه، جراء أنه كذب على اسحق بأن

www.omerelammas.com

أبلغه عدم حاجته للمساعدة... معللاً ذلك بأنه يمتلك من المال ما سيسد حاجته...

علماً بأنّه الآن لا يملك مليماً واحداً... غير المبلغ الذي استلمه من اسحق... وتعد هذه الحالة من شيم أهلنا السودانيين زمان... فهم لا ينكسرون أمام المغريات... وهم يؤمنون أنّ كرامتهم تفوق كل متطلبات أو ملذات الحياة.

لعلك عزيزي القارئ... تدرك الآن مدى الشهامة والمروءة، التي كانت تسود المجتمع السوداني، في حقبة من حقب ماضينا وتاريخنا المنيرة... ولعلك تدرك معي أيضاً، أنّ الله كفيل بعباده فهو يغرس الرحمة في القلوب ويبشر الصابرين بالفرج..

www.omerelamin.com